العلم عند الغزالي وأسئلة معاصرة مطروحة

أحمد صدقي الدجاني

في عالم يعيش ثورة في الاتصال وتفجّراً في المعلومات لم يسبق لـه مثيل، يبرز السؤال مُلحاً على صعيد الفرد وعلى صعيد المجتمع.

ماذا نتلقى من هذا الفيض الإعلامي وماذا نترك جانباً ؟ ماذا نُعْلَم ؟ ماذا نتعلَّم من العلم ؟ وماذا نُعَلّم أجيالنا القادمة ؟

وفي عالم يعيش انقلابا نوويا يهدّد بخطر فناء الجنس البشري بأسلحة التدمير النووية، ويعيش اختراق الإنسان للفضاء الخارجي ونفاذه فيه، وتوغل الإنسان في أعماق البحار، يبرز السؤال ملحا على صعيد الفرد وعلى صعيد المجتمع وعلى الصعيد العالمي ككل.

ما هي مجالات العلم التي يجب أن ننشغل بها ؟ ما هو العلم الذي يعود بالخير على الإنسان ؟ وكيف نتجنب من إنجازات العلم تلك التي تؤدي إلى إرهاق الإنسان وإتعاسه وإفنائه ؟

يقودنا النظر في هذه الأسئلة الملحة ومثيلات لها إلى سؤال أولي يتطلب منا إجابة واضحة عنه.

ما هو العلم وما هي حقيقته ؟

لقد برزت هذه الأسئلة مرارا من قبل في مجتمعات عاشت تفاعلات حضارية. وكان بروزها بدرجات متفاوتة. وجرى طرح أجوبة عنها. وكم هو ضروري أن نلمّ بالتراث الإنساني في هذا المجال ونستحضر مضمونه ونحن نبلور إجابتنا المعاصرة. وكم هو مفيد أن نتعرف على ما قدمه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي من أجوبة عن هذه الأسئلة، ونحن نحيي ذكراه بمناسبة مضي تسعة قرون على انتقاله للرفيق الأعلى. ومعلوم أن الغزالي عاش فترة تفاعلات حضارية كانت تجيش بها الحضارة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري، وواجه هو ومجتمعه وضعا تدفقت فيه المعلومات قوية وتعددت فيه الاهتمامات العلمية في مختلف الميادين، بفعل انفتاح الحضارة العربية الإسلامية على الحضارات التي سبقتها والتي عاصرتها.

انشغل الغزالي في مراحل حياته المختلفة بالبحث في ماهية العلم وحقيقته، وعالج هذا الموضوع الهام في كثير من كتبه. وهو الذي كتب عن معيار العلوم ومعيار القول، ومقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة، وميزان العمل، وإحياء الدين. وقد وصف انشغاله هذا في رائعته «المنقذ من الضلال» فقال بأسلوبه الفريد :

«كان التعطش إلى درك حقائق الأُمور دأبي وديدني - من أول أمري وريعان عمري - غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جِبِلّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة - على قرب عهد من الصبا - إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلاّ على اليهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلاّ على الإسلام. وسمعت الحديث

المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال : «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» فتحرَّك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأُستاذين، والتميز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تَمَيُّز الحق منها عن الباطل اختلافات. فقلت في نفسي أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأُمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟».

لقد أفرد الغزالي جزءاً خاصاً وافياً من كتابه «إحياء علوم الدين» للإجابة عن جميع الأسئلة المتعلقة بالعلم، وأسماه «كتاب العلم» واستهل به الكتاب الأم. ولنا قبل أن نعرض أجوبة الغزالي أن نقدم بين يديها الملاحظات التالية :

أولاً ـ إن الغزالي اطلع على ما كتب في عصره حول هذا الموضوع الهام وتمثله وأفاد منه، وأضاف إليه. وهو يقول في مقدمة الإحياء بعد أن تحدّث عن تبويبه «ولقد صنَّف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميَّز هذا الكتاب عنها بخمسة أُمور..» والخامس هو «تحقيق أُمور غامضة اعتصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا..» وهو إضافته الإبداعية.

ثانيا إن الغزالي كتب «كتاب العلم» وقد بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، ودخل المرحلة الثالثة من مراحل التأليف وهي «مرحلة العزلة» بين عامي 488 و 499 هـ.

ثالثا ـ إن الغزالي يبدو في هذه المرحلة من خلال كتاب «إحياء علوم الدين» صاحب نظرة كلية ورؤية شاملة، شيد لنفسه بناءاً فكرياً معمارياً متماسكاً كل لبنة فيه تحتلُّ مكانها وتساند الأخرى وتكملها، وما أعظم الصرح الذي شيّده.

كما يبدو الغزالي صاحب منهج واضح ينطلق من الشكّ ليصل إلى اليقين. وقد كتب زكي نجيب محمود مؤخراً مقارنا بين الغزالي وديكارت من حيث المنهج فقال : «وحقيقة الأمر هي أن الشبه شديد من حيث المنهج - وليس من حيث المحتوى - بين الغزالي وديكارت. واقرأ عن خطوات المنهج الذي يؤدي بالإنسان إلى اليقين في كتاب «محك النظر» للغزالي، تجد نفسك على وشك أن تتساءل : وماذا بقي بعد ذلك لديكارت ؟ إذ ربما كان ركن الأسس في المنهج عندهما واحداً، وهو ضرورة البدء بحقائق لا تحتمل أن يشك فيها بحكم طبيعتها المنطقية...». وقد أوجز زكي نجيب محمود عصارة الوقفة الغزالية بمقولة «أنا أريد إذن أنا إنسان». ولاحظ أن هذه المقولة تلتقي ومقولة ديكارت الذي جاء بعد ستة قرون «أنا أفكر إذن أنا موجود» في أن طرف التفكير وطرف الوجود وجهان لحقيقة واحدة وكذلك الأمر بالنسبة للإمام الغزالي، فإذا كانت الإرادة هي بمثابة الأمر كن فتأتي الاستجابة، فها هنا كذلك يكون الطرفان وجهين لحقيقة واحدة.

رابعا - إن الغزالي انشغل وهو يعالج موضوع العلم بتحديد معاني الإصلاحات وتوضيح دلالات الألفاظ. وهذه قضية أساسية تبرز في كل نهضة ويسبب القصور في معالجتها حدوث هدر في الطاقات العقلية في خضم الجدل الذي لا طائل منه حول إصطلاحات وألفاظ لها مدلولات ومعاني مختلفة في أذهان المتجادلين. ونحن نستشعر اليوم حاجة لمعالجة هذه القضية الأساسية في حياتنا الفكرية.

خامسا - وأخيرا - إن الغزالي في الأجوبة التي طرحها عبّر عن موقف الاستجابة الفاعل، أحد مواقف ثلاثة تبرز في كلّ عملية تفاعل حضاري. وقد شن هجوماً عنيفاً على موقف الانغماس في الحضارة الأخرى الذي وقفه المنبهرون بها والذين قلّدوا تقليداً أعمى ما قال به أصحابها. وعبَّر في مسلكه عن رفضه لموقف الانكماش المتحجر. وتطلّع دوماً لأن يبلور رؤية نابعة عن الذات وعمل على ذلك ونجح فيه.

ـ ما هو العلم ؟

آثر الغزالي أن يبدأ كتاب العلم بباب في فضل العلم والتعليم والتعلم، ولم يبدأ بالتعريف وجعل كتاب العلم ضمن ربع العبادات، وأول هذا الربع وهو يقول في مقدمة الإحياء «وصدرتُ الجملة (الأرباع الأربعة) بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله ﷺ الأعْيَانُ بطلبه إذ قال رسول الله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وأميّز فيه العلم النافع من الضار إذ قال ﷺ : «نعوذ بالله من علم لاينفع»، «وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب».

العلم إذن من منظور ديني عبادة في الأصل. وقد يختلط لبابه بقشور، وهنا يوجد العلم الضار الذي يجب أن يميّز العلم النافع عنه.

لكن الغزالي لا يلبث أثناء معالجته أبواب كتاب العلم أن يقدم تعريف العلم.

فالعلم بالإطلاق «هو معرفة الشيء على ما هو به، وهو من صفات الله تعالى».

«والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة، فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرّف الملائكة عن الأنبياء، بل الكيّس من الخيل خير من البليد، فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة».

«إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون مطلوبا لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حقّ السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها.

ولن يتوصل إليها إلاّ بالعلم والعمل. ولا يتوصل إلى العمل إلا بـالعلم بكيفيـة العمل، فأصْلُ السعادة في الـدنيـا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأَعمـال... هـذه فضيلـة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها».

وحين بيّن الغزالي ما بُدل من أَلفاظ العلوم كي يوضح ما حدث من خلل بسبب عدم تحـديـد الاصطـلاحـات، عرض لخمسـة أَلفـاظ هي الفقـه والعلم والتـوحيـد والتـذكير والحكمة، وأورد دلالة لفظ العلم فقال : «كان يطلق ذلك على العلم بالله وبأفعـالـه في عباده وخلقه».

والدلالة تشمل آيات الله وأفعالـه في عبـاده وخلقـه فتبـدو جـدّ واسعـة. وقـد حـدد الغزالي في موضع آخر القسم المحمود من العلم بأنه : «العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقـه، وحكمتـه في ترتيب الآخرة على الـدنيـا». وهـامٌّ جـداً الوقوف أمـام فكرة ترتيب الآخرة على الدنيا، لأَنها تعني العمل في هذه الدنيا على أسـاس من العلم وترفض كل أشكال القعود، فمن قعد ولم تحسن دنياه ساءت آخرته.

- كيف نصنف العلوم ؟

يورد الغزالي أكثر من تصنيف مستخدما لكل واحد معياراً خاصـاً بـه. وهو يتنـاول بالحـديث «العلم الـذي يتوجـه بـه إلى الآخرة» ومرة أُخرى نشير أن ذلـك يعني علمـاً دنيوياً نصْبَ عينه الآخرة.

يقسم الغزالي هذا العلم بـدايـة إلى قسمين : علم المعـاملـة وعلم المكاشفـة. وهو يقول : «وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط. وأعني بعلم المعاملة مـا يطلب منـه مع الكشف العمل بـه. والمقصود من هـذا الكتـاب علم المعـاملـة فقـط دون علم

المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب، وإن كانت غاية مقصد الطالبين، ومطمح نظر الصديقين، وعلم المعاملة طريق إليه. ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم إلاّ في علم الطريق والإرشاد إليه. وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء...»

يشرح الغزالي العلمين في موضع آخر فيقول : «فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح جلية الحق في هذه الأمور اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه. وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا. وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه علهيم في جميع الأحوال...»

يقسم الغزالي علم المعاملة بدوره إلى قسمين : «إلى علم ظاهر أعني العلم بأعمال الجوارح، وإلى علم باطن أعني العلم بأعمال القلوب. والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة. والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم. فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن. والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة. والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام، ولا يشذّ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام».

ويسمي الغزالي علم المعاملة علم أحوال القلب وعلم طريق الآخرة وهو عنده فرض عين على كل إنسان.

- ما هي الميادين العلمية التي يجب أن نرودها ؟ وكيف تصنف بحسب الحاجة إليها في حياة الناس ؟.

يتطرق الغزالي للإجابة عن هذا السؤال في معرض شرحه لفضيلة التعليم. ويوضح أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلاَّ بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة... وليس ينتظم أمر الدنيا إلاَّ بأعمال الآدميين، وأعمالهم وحرفهم وصناعتهم تنحصر في ثلاثة أقسام». ويشرح الغزالي هذه الأقسام : «أحدها أصول لاَقَوامَ للعالم دونها وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم، والحياكة وهي للملبس، والبناء وهو للمسكن، والسياسة وهي للتأليف والاجتاع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها.

والثاني ما هي مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها، كالحداداة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

الثالث ما هي متممة للأُصول ومزينة، كالطحن والخبز للزراعة، وكالقصارة والخياطة للحياكة».

ويلاحظ الغزالي أن هذا التقسيم يماثل تقسيم الشخص إلى ثلاثة أضرب من الأَجزاء أصول كالقلب والكبد والدماغ، واما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأَعصاب والأوردة، وإما مُكَمِّلة لها ومزينة كالأَظفار والأَصابع والحاجبين.

يرى الغزالي أن أشرف هذه الصناعات أُصولها، «وأشرف أُصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات. ولذلك يستخدم لا محالة صاحب الصناعة سائر الصناع».

ويصنف الغزالي ـ المولع بالتصنيف ـ السياسة على أربع مراتب عُليا هي سياسة الأَنبياء ثم سياسة الخلفاء والسلاطين ثم سياسة العلماء ثم سياسة الوعاظ. والأولى

حكمها على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، والثانية حكمها على الخاصة والعامة ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم، والثالثة حكمها على باطن الخاصة فقط، والرابعة حكمها على باطن العامة فقط.

- كيف تصنف العلوم التي يجب تعلمها بحكم الدين ؟

يقسم الغزالي العلوم هنا إلى شرعية وغير شرعية. ويعرّف الشرعية بأنها : «ما استفيد من الأنبياء ولا يرشد إليه العقل مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة».

ويقسم الغزالي العلوم غير الشرعية إلى ثلاثة أقسام محمود ومذموم ومباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب. وذلك ينقسم إلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. وفرض الكفاية هو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أُمور الدنيا كالطب والحساب وأُصول الصناعات من فلاحة وحياكة وسياسة بل وحجامة وخياطة. أما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق ذلك كله. والمذموم من هذه العلوم ما يجلب الضرر مثل علم السحر والطلمسات وعلم الشعوذة والتلبيسات. أما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

ويصنف الغزالي العلوم الشرعية إلى أُصول وفروع ومقدمات ومتممات. كما ينصف في موضع آخر الفلسفة إلى أربعة أجزاء هي الرياضيات والمنطق والإلهيات والطبيعيات.

يرى الغزالي أن العلم يشمل دوائر الاعتقاد والفعل والترك، وهو يقسم إلى فرض عين على كل إنسان وفرض كفاية لا يستغنى عن وجوده في المجتمع. وهو يرى أن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب وليس كل عمل علما.

ـ ما العلاقة بين العلم والعقل ؟ وما هو العقل ؟

يقول الغزالي : «العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه. والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، أو كيف يستراب فيه. والبهيمة مع تصور تمييزها تحتشم العقل حتى أن أعظم البهائم بدناً وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل».

ويقول الغزالي : «العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ» :

الأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية.

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد...

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل.

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا.

فالأول هو الأس والسنخ والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى.

ونعود إلى الأسئلة الملحة علينا في عالمنا المعاصر بعد هذه الرحلة مع رؤية الغزالي للعلم. فنتهيأ للإجابة عنها بالعقل الذي هو منبع العلم ومطلعه وأساسه. وقد زين الله الإنسان بالعقل وهو الذي خلقه من علق، ليعلّمه بالقلم ما لم يعلم. ونردد مع الغزالي كيف يستراب في العقل ؟!

نصل من خلال التفكير بالعقل في هذه الأسئلة إلى موافقة الغزالي على أن العلم بالإطلاق هو معرفة الشيء على ما هو به، والعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم... ونفهم قوله بعمق «إن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة».

والأسباب الثلاثة هي أن يكون مؤديا إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره، أو أن يكون مضرا بصاحبه، أو أن يكون خوضا في علم لا يستفيد الخائض فيه.

نصل من خلال التفكير أيضا إلى أن ترتيب العلوم بحسب حاجة الفرد لها في معاشه وحاجة المجتمع هو أمر ضروري. ولا بد أن يظهر هذا في مناهج التربية التي توضع لتعليم الأجيال الجديدة. ولا بد أن يستهدف الترتيب صلاح أمر الدنيا وحماية الإنسان من مختلف أنواع الظلم.

نصل بالعقل أيضاً إلى أن العلم المحمود هو الذي توجهه القيم العليا ونستشعر من ثم ضرورة «إحياء علوم الدين»، ونفهم حركة الإحياء الروحي التي يعيشها عالمنا المعاصر، ونتطلع إلى أن تأخذ هذه الحركة مداها وتحرص على نقائها بحيث لا يشوبها

أي تعصب مقيت ولا تفسدها أية تفرقة بين بني الإنسان. وعلينا أن ننظر في أُمور عالمنا المعاصر لنتلمس الطرق المثلى للقيام بعملية إحياء علوم الدين فيه إيقاظاً لضمير الإنسان وإسعاداً له، ولنا أن نسترشد بعمل الغزالي الخالد قبل تسعة قرون.

إن عَرَفه ـ رمز العلم ـ في قصة نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» عانى الكثير من وقوعه تحت تسلّط «فُتوّات الحارة» واستخدامهم له في التخريب والتدمير، وهو يقول لأولاد الحارة إنه لم يُقتل «الجبِلاّوي» ـ رمز القوة العظمى ـ كما قيل لهم. ولا سبيل لإنقاذه من تسلط الفتوات عليه إلاّ بالعودة إلى الدين والارتباط بخالق الكون.